التحف في مذاهب السلف

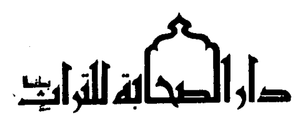
للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني

صاحب كتاب نيل الأوطار

تحقيق

سيد عاصم علي

شهدت بإذن الله أن محمدا
رسول الذي فوق السموات من عل
وأن الذي عادى اليهود ابن مريم
رسول أتى من عند ذي العرش مرسل



للنشر والتحقيق والتوزيع

ت : ٣٣١٥٨٧ - ص . ب : ٤٧٧

كتاب قد حوى دررا بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيها

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

دار الصحابة للتراث بطنطا
للنشر والتحقيق والتوزيع
شارع المديرية - امام محطة بنزين التعاون
ت : ٣٣١٥٨٧ - ص . ب : ٤٧٧

هـذه الرســالة

هذه الرسالة المباركة ، هي إحدى فتاوى الشيخ محمد بن على الشوكانى ، رداً على سؤالٍ ، ورد عليه من بلد الله الحرام ، يسأل صاحبه عن آيات وأحاديث الاستواء والصفات ، ومنهج السلف الصالح في فهم هذه الآيات والأحاديث ، هل تمرر وتجرى على الظاهر ، أم تأول عن هذا الظاهر .

فأجاب ــ رحمه الله ــ جواباًشافياً مقنعاً ، بين فيه طوائف الإسلام ، وموقف كل طائفة من هذه المسألة .

ولما كانت هذه الرسالة ــ على صغرها ــ مفيدة وجامعة ، رأينا أن نفردها بالنشر ، رجاء أن ينتفع بهاأخوة لنا طالما التبس عليهم هذا الأمر فالتمسوا جلاءه وفهمه على الوجه الصحيح .

والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام
على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الناشر

تقـديم

الحمد لله الذي أذل الشرك والمشركين ، وأعز لواء التوحيد والموحدين ، وجعل الدائرة على أهل الأهواء المضلين ، فخاب سعيهم في العالمين .

ثم الصلاة دائماً أبدا على النبي الأمين ، إمام الموحدين الميامين ، وصاحب لواء الحمد يوم الدين ، الذى قمع دعاوى الشرك والمشركين ، وسل سيف الحق على المارقين ، فبدد شملهم أجمعين .

وعلى آله وصحبه ، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعـــد .

فإن الله عز وجل ، لما أرسل نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، أرسله على فترة من الرسل ، بعد أن كادت معالم التوحيد أن تندثر ، وكان مَنْ سلم مِنَ الشرك والكفر ، متحيراً لا يعرف أين الطريق .

فأرسله ربه ليخرج الناس من ظلمة الجهل إلى نصاعة الحق ، وجاء الإسلام إلى الدنيا ليعم به الخير ، وينتشر الصلاح .

ومن ثم فقد واجه الإسلام جاهليات عدة ، كل منها آخذ على عاتقه معاداة الإسلام والكيد له ، ، ، ولكن الله عز وجل غَلَّبَ دينه ، وأعزه بنصره المؤزر .

﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أنا وَرُسُلِي ، إنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [٢١ المجادلة]

وقد واجه الإسلام هذه الجاهليات مواجهة صُلْبَة[1] ، وأعلن في وجهها العداء ، وناقش معتقداتها ، وبين زيفها وضلالها .

---

(١) جاء فى اللسان [٢٤٧٦] :
صَلُبَ الشيء صَلاَبَة فهو صَلِيبٌ وصُلْبٌ أي شديد

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ الله رَبّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [٢٢ الأنبياء]

وكان من هذه الجاهليات : شرك العرب ، وهو شرك ساذج مفضوح ، يدل على بدائية التفكير ، وسطحية المنطق ، كهذا الذى يعبر عنه بيت '' النابغة الذبيـاني '' فى معلقته الدالية

فَلاَ لَعَمْرُ الّذِى مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى الأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ[٢]

فقد بدأ بالتوحيد في صدر البيت ، ثم انتكس إلى الشرك في عجزه ، يقول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم باللّهِ إلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [١٠٦ يوسف]

وكان من هذه الجاهليات أيضاً : جاهلية المثنوية عند الفرس ، وجاهلية التثليث عند النصارى ، وجاهليات شتى في مشارق الأرض ومغاربها ، فوقف لها الإسلام موقفاً صارماً ، فمااستطاعت إحداهن الصمود أمام نصاعته ومصداقيته .

فلما عَزَّ على الهر أن يصول أمام الأسد ، ولما عَزَّ على البغاث أن يستنسر ، تحول إلى حية رقشاء ، وأفعى رقطاء ، تدس السم فى الخفاء ، وفي العلن إن أمكن لها الإعلان ، فكلما خلا لها الجو لدغت ، وكلما حوصرت دست سمها في المشارب والمناهل ، فتفسد على الناس توحيدهم ، وتكدر عليهم صفاء دينهم

'' خلاَ لَكِ الجَوُّ فَبِيضي وَاصْفِري ''

ولما كانت الأفعى مدحورة مقهورة في العهد النبوى ، فقد لزمت شقها ، واستكانت في جحرها ، وكلما أرادت أن تطل برأسها أُلقمت حجراً يسكنها مكمنها ، ويلزمها مخمدها .

(٢) ديوانه ص ٢٥ ،،، هريق = أريق ، الأنصاب = حجارة كانوا يعبدونها ، جسد = الدم اللاصق به .

ثم أطلت اللعينة برأسها عند موت النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فوقف لها الصديق وقفة الصديق ، صاحب الإيمان البصير الرشيد ، فلما وقف الصحابة من موته صلى الله عليه وآله وسلم موقف المكذب الذي يكاد يصدق ، أو المصدق الذى كاد يكذب ، قالها أبو بكر مدوية ، ليحسم بها الأمر :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1] من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد ربَّ محمد فإنه حيٌّ لا يموت .

فَأُلقمت الأفعى أول حجر فاندحرت ، ثم توالت الفصول يأخذ بعضها بذيول بعض ، ونشط الصديق لمحاربة من ارتد وتملكته الأفعى ، حتى أقام عودها ، ورتق خرقها ، ورمَّ فسادها ...

ثم جاء من بعده الفاروق ، فوقف صُلْباً لا يلين ، وقد أقام صرح العدل ما شاء الله له أن يقيم ، فكان شوكة فى حلق الأفعى ، فلما غُصَّتْ به ، وأعياها أمره ، غالته بخنجرها المسموم ، وعقرته بكلبها العقور ، اللئيم الرجيم ' أبو لؤلؤة المجوسي ' وقيل « النصرانى » ثم هل استراحت فما استراحت والله وإنما عادت تكيل الكيد لهذا الدين وأهله ، فكان ما كان من فتن في عهد الخليفة المظلوم '' عثمان بن عفان '' ،حتى راح بسمها — رضى الله عنه — ، ومن بعـده الإمام على بنْ أبى طالب ، ومنذ ذلك الحين ، اتسع الخرق على الراقع ، فقد لبست الأفعى غير لبوسها ، وتزيت بزى جديد ، هو زى الكيد في أصول الدين ومعتقداته ، ووسوست لفرق من المسلمين فخرجوا عن الإسلام ومنهجه الصحيح .

وهنا وضعت الأفعى السيف ، وأشرعت اللسان ، لسان بقايا مجوسٍ وفرسٍ ونصارى ، تكيد بهم للأمة فى عقيدتها ، وأصول دينها ، وظهر الفساد والانحراف فى فهم الدين ، فهم قرآنه وفهم أصوله ، عن غفلة مرة ، وعن تغافل مرات ، بطوية ساذجة مرة ، ونوايا خبيثة مرات ومرات .

(١) ٣٠ الزمر .

وظهر مما ظهر ، الاعوجاج فى فهم آيات وأحاديث الأسماء والصفات ، فقد سلكوا فيها مسلكاً منحرفاً ، خرج على ما شرعه لهذه الأمة ، ربُّها ونَبِيُّها ،،، فكانوا بين معطل لصفات ثابتة بالكتاب والسنة ، ثبوتاً أوضح من شمس النهار ، وآخر يغالي حتى يصل إلى بشاعة التجسيم أو يصل إلى حد الجبر المحض والقسر الخالص ، فأولوا الآيات البينات ، وتمحلوا في الحجج القاطعات ، وآخرين نفوا الصفات نفياً عاماً ،،،،

وكلهم صاحب هوى ، قد استمالته الأفعى ، فأصبح لساناً لها ، وبوقاً تنفث من خلاله سمها ، فحذار .. حذار ، أن تقع أيها المسلم فى الحبائل ، أو تقع في الشُّرُك المنصوبة .

وبعـــد

فقد اطلعت على هذه الرسالة ، للإمام الرباني ، والقطب اليماني الشيخ محمد بن على الشوكاني ، فراقني أسلوبها ، وشاقني منهجها فعزمت على أخي الفاضل أبي حذيفة ابراهيم بن محمد ، أن يقوم على طبعها مفردة ، مع بعض التعليقات والتوضيحات ، فلبى جزاه الله خيرا ، وأثابه نعم الثواب ، لما له من صنائع فى نشر الكتاب الإسلامي .

وفى الختام أدعوا الله مخلصاً ، أن يتقبل هذا العمل ، قبولاً حسنا ، ويضاعفه لنا ، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ، ويثيبنا عليه خير الثواب ، ويتجاوز عن هناته وسقطاته .

﴿ إِنْ أُرِيْدُ إِلَّا الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوفِيقِي إِلَّا باللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [٨٨ هود]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتب
أبو عبد الرحمن
سـيد عاصـم علـى

ترجمــة المؤلف

هو الإمام العالم الرباني ، والسهيل الطالع من القطر اليماني ، إمام الأئمة ومفتي الأمة ، بحر العلوم ، وشمس الفهوم ، سند المجتهدين الحفاظ ، فارس المعاني والألفاظ ، فريد العصر ، ونادرة الدهر ، شيخ الإسلام ، وقدوة الأنام ، علامة الزمان ، ترجمان الحديث والقرآن ، علم الزهاد ، وأوحد العباد ، قامع المبتدعين ، وآخر المجتهدين ، رأس الموحدين ، وتاج المتبعين ، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها ، قاضي قضاة أهل السنة والجماعة ، شيخ الرواية والسماعة .... الخ

هذه بعض النعوت والأوصاف ، التي خلعها على الإمام الشوكاني تلميذه حسين السبعي الأ نصاري اليماني ، وهو يستحقها وزيادة ، فقد كان كما وصفه تلميذه ، بل وأكثر .

فهو الإمام محمد بن على بن محمد بن عبد الله بن الحسن ،، ينتهي نسبه إلى **خَيْشَنَة** [بفتح الخاء المعجمة وتسكين المثناة التحتية وفتح المعجمة الثالثة والنون] **ابن زَبَّاد** [بتشديد الموحـدة وفتحها] ، وقد لقب **بالشَّوْكَاني** [بتشديد المعجمة وفتحها ، وتسكين الواو وفتح الكاف] نسبة إلى شوكان وهى قرية من قرى **السُّحَامِيَّة** [بضم المهملة الأولى وفتح الثانية] إحدى قرى **خَوْلان** [بفتح المعجمة وسكون الواو] وبينها وبين صنعاء مسافة يوم ، وكان موطنه رحمه الله '' **عدنى شوكان** '' وهى إحدى محلات شوكان ، وقد تخرج منها كثير من العلماء .

مولــده :.

ولد ـــ رحمه الله ـــ فى وسط نهار الإثنين ، الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١١٧٣ هـ .

وكان والده من كبار علماء صنعاء وقضاتها ، وقد درس أول ما درس على يدي هذا الوالد الفاضل ، فقرأ عليه شرح الأزهار ، وشرح الناظري لمختصر العصيفرى .

وقد حفظ رحمه الله القرآن ، وجوده ، وحفظ المتون في سائر الفنون ، وحوى الشروح والحواشي ، وتخرج على أجلاء علماء عصره ، وقلما وجد فن من فنون العربية والإسلام ، إلا وحاز فيه قصب السبق ، حتى ذاع أمره ، وانتشر ذكره ، ووردت عليه الفتاوى من كل صوب وحدب ، وقد جُمعت فتاواه فى ثلاث مجلدات ، ووسمت بـ'' **الفتح الرباني في فتاوى الشوكاني** '' وقد عدوه مجدد القرن الثالث عشر الهجري ، كما قال محمد صديق خان في كتابه '' **دليل الطالب إلى أرجح المطالب** ''.

وكان يرى نبذ التقليد المتجمد ، والأخذ بالاجتهاد والدليل ، ونبذ كل ما لا دليل عليه ، وقد وضع في ذلك رسالته القيمة :

'' **القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد** ''

وقد تولى القضاء فى صنعاء ، وجلس به مدة طويلة .

وفاتـــه :.

وكانت وفاته ــ رحمه الله ــ في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٥٠ هـ ودفن بصنعاء ، بعد حياة علمية مباركة ، وقد تخطى السبعين بست سنوات .

مؤلفاتـــه :.

١ ــ إتحاف المهرة في الكلام على حديث « **لا عدوى ولا طيرة** ».
٢ ــ أدب الطلب ومنتهى الأرب .
٣ ــ إرشاد الأعيان إلى تصحيح ما في عقود الجمان .
٤ ــ إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات .
٥ ــ إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي .
٦ ــ إرشاد المستفيد إلى دفع كلام ابن دقيق العيد في الإطلاق والتقييد .
٧ ــ إرشاد المقال على إزالة حل الإشكال .
٨ ــ إشراق النيرين في بيان حكم إذا تخلف عن الوعد أحد الخصمين .
٩ ــ إطلاع أرباب الكمال على ما في رسالة الجلال '' الهلال من الاختلال ''.

١٠ــ أمنية المتشوق إلى معرفة حكم المنطق .
١١ــ البحث المسفر عن تحريم كل مسكر .
١٢ــ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع .
١٣ــ بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد .
١٤ــ تحرير الدلائل على مقدار ما يجوز بين الإمام والمؤتم من الارتفاع والانخفاض والبعد والحائل .
١٥ــ التحف في مذاهب السلف . [رسالتنا هذه]
١٦ــ تحفة الذاكرين بشرح عدة الحصن الحصين .
١٧ــ التشكيك على التفكيك .
١٨ــ تشنيف السمع بإبطال أدلة الجمع [جمع الصلاتين في الحضر] .
١٩ــ تنبيه الأمثال على جواز الاستعانة من خالص المال .
٢٠ــ تنبيه ذوي الحجا على حكم بيع الرجا .
٢١ــ التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح .
٢٢ــ جواب السائل عن قول الله تعالى '' **والقمر قدرناه منازل** '' .
٢٣ــ جيد النقد في عبارة الكشاف والسعد .
٢٤ــ حل الإشكال في إجبار اليهود على التقاط الأزبال .
٢٥ــ الدور البهية في المسائل الفقهية [مشروح بالروضة الندية]
٢٦ــ در السحاب في مناقب أهل البيت والأصحاب .
٢٧ــ الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد .
٢٨ــ رسالة البحث الملم ، المتعلق بقوله تعالى '' **لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم** '' .
٢٩ــ رسالة البغية في مسائل الرؤية .
٣٠ــ رسالة الدواء العاجل لدفع العدو الصائل .
٣١ــ رسالة على حديث '' **الدنيا ملعونة ،ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه** '' .
٣٢ــ رسالة في إبطال دعوى الإجماع على تحريم السماع .
٣٣ــ رسالة في اختلاف العلماء في تقدير مدة النفاس .

٣٤ــ رسالة في أن الطلاق لا يتبع الطلاق .
٣٥ــ رسالة في الحد الذي يجب معه قصر الصلاة في السفر .
٣٦ــ رسالة في حكم رضاع الكبير .
٣٧ــ رسالة في حكم التسعير .
٣٨ــ رسالة في حكم الطلاق البدعي .
٣٩ــ رسالة في الرد على القائل بوجوب التحية .
٤٠ــ رسالة في رفع المظالم والمآثم .
٤١ــ رسالة في قول المحدثين '' رجال إسناده ثقات '' .
٤٢ــ رسالة في مسائل العول .
٤٣ــ رسالة في وجوب توحيد الله عز وجل .
٤٤ــ رسالة المقالة الفاخرة فى اتفاق الشرائع على إثبات الدار الآخرة .
٤٥ــ الرسالة المكملة في أدلة البسملة .
٤٦ــ رفع الجناح عن نافي المباح .
٤٧ــ رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة .
٤٨ــ الروض الوسيع في الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع .
٤٩ــ زهر النسرين في حديث المعمرين .
٥٠ــ السيل الجرار على حدائق الأزهار .
٥١ــ شرح الصدور في تحريم رفع القبور .
٥٢ــ شفاء العلل في حكم الزيادة في الثمن لمجرد الأجل .
٥٣ــ الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقال أهل الإلحاد .
٥٤ــ الصوارم الهندية المسلولة على الرياض الندية .
٥٥ــ الطود المنيف في الانتصاف للسعد من الشريف .
٥٦ــ طيب النشر في المسائل العشر .
٥٧ــ عقود الجمان في بيان حدود البلدان .
٥٨ــ عقود الزبرجد .
٥٩ــ فتح الخلاف في جواب مسائل عبد الرزاق .
٦٠ــ الفتح الرباني في فتاوى الشوكاني .

٦١ــ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة .
٦٢ــ قطر الولي في معرفة الولي .
٦٣ــ القول الصادق في حكم الإمام الفاسـق .
٦٤ــ القول المحرر في حكم لبس المعصفر وسائر أنواع الأحمر .
٦٥ــ القول المفيد في أدلة الإجتهاد والتقليد .
٦٦ــ القول المقبول في رد خبر المجهول من غير صحابة الرسول .
٦٧ــ كشف الأستار عن حكم الشفعة بالجوار .
٦٨ــ منحة المنان في أجرة القاضي والسجان .
٦٩ــ نثر الجوهر في شرح حديث أبي ذر .
٧٠ــ نزهة الأحداق في علم الاشتقاق .
٧١ــ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبـار .
٧٢ــ وبل الغمامة في قول الله تعالى '' **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ''
٧٣ــ الوشي المرقوم في تحريم التحلي بالذهب للرجال على العموم .

رسالة التحف فى مذاهب السلف

((لشيخ الإسلام القاضى العلامة محمد بن علي الشوكاني رحمه الله تعالى))

(بسم الله الرحمن الرحيم) : الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنام وآله الكرام ، ورضى الله عن صحبه الأعلام (وبعد) : فإنه وصل سؤال من بعض الأعلام الساكنين ببلد الله الحرام ، وهذا لفظه :.

سؤال ـــ (بسم الله الرحمن الرحيم) : الحمد لله رب العالمين ـــ ما يقول فقهاء الدين ، وعلماء المحدثين ، وجماعة الموحدين ، فى آيات الصفات وأخبارها اللاتى نطق بها الكتاب العظيم ، وأفصحت عنها سنة الهادى إلى صراط مستقيم ، هل إقرارها وإمرارها وإجراؤها على الظاهر بغير تكييف ولا تمثيل ، ولا تأويل ولا تعطيل ، عقيدة الموحدين ، وتصديق بالكتاب المبين ، واتباع بالسلف الصالحين ، أو هذا مذهب المجسمين ؟ وما حكم من أول الصفات ونفى ما وصف الله به نفسه ووصفه به نبيه وتأيد بالنصوص، واتفق عليه الخصوص ، من أن الله سبحانه فى سمائه مستو على عرشه بائن من خلقه ، وعلمه فى كل مكان ، والدليل آيات الاستواء والصعود والرفع . وقوله تعالى ﴿ **أأمنتم من فى السماء** ﴾[1] ومن السنة حديث الجارية والنزول وعمران بن حصين . وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « **ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء** »[2] وغير ذلك من الآيات المتواترة ، والأحاديث المتكاثرة ، وأول الآيات وجعل الاستواء استيلاء وأول النزول بالرحمة ، وهكذا جعل التأويل عليه مطردة فى سائر نصوص الصفات . وعاش فى ظلام العقل فى الجهل والشبهات . وإذا قيل له أين الله ؟ أجاب بأنه لا يقال أين الله . الله لم يكن له مكان ـــ كما هو جواب فريقى

---

(١) سورة الملك ١٦

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥١/٨/الفتح) كتاب المغازي باب بعث علي وخالد إلى اليمن ومسلم (٧٤٢/٢) ط عبد الباقي ، كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم وأحمد في المسند (٥،٤/٣) .

المضلين . فهل هذا جواب الجهميين[٣] والمريسيين[٤] وأضلاء المتكلمين . أم اختيار علماء السنيين ؟ أفيدونا بجواب رجاء الثواب ﴿ **يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها** ﴾[٥] فإن هذا المقام طال فيه النزاع ، وحارت فيه الأفهام . وزلت الأقدام ، وكل يدعى الصواب . بزخرف الجواب . فأبينوا المدعى بالدليل . وبينوا طريق الحق بالتفصيل والتطويل ضاعف الله لكم الأجور . ووقاكم الشرور . والسلام عليكم ورحمة الله .

جوابه : (وأقول) اعلم أن الكلام فى الآيات والأحاديث الواردة فى الصفات ، قد طالت ذيوله ، وتشعبت أطرافه ، وتناسبت فيه المذاهب ، وتفاوتت فيه الطرائق ، وتخالفت فيه النحل[٦] وسبب هذا عدم وقوف المنتسبين إلى العلم حيث أوقفهم الله ،

(٣) الجهمية تطلق بمعنى عام ويقصد بها نفاة الصفات عامة ، وتطلق بمعنى خاص ويقصد بها أتباع أبي محرز جهم بن صفوان السمرقندي ، مولى بني راسب ، وهو من أهل خراسان ، وقد تتلمذ على الجعد ابن درهم ، كما اتصل بمقاتل بن سليمان من المرجئة ،، وكان الجهم كاتباً للحارث بن سريج من زعماء خراسان ، وظهرت بدعة الجهم أول ما ظهرت (بترمذ) ، وقتله سالم بن أحوز المازني ، (بمرو) سنة ١٢٨ هـ في آخر ملك بني أمية .

وكان مذهب الجهم موافقاً لمذهب المعتزلة في نفي الصفات الأزلية ، وكان يقول '' بالجبر ، وفناء النار والجنة ، وعدم جواز اتصاف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه'' .

يقول ابن حزم في الفصل ٢٠٤/٤

'' فمن فضايح الجهمية وشنعهم ، قولهم بأن علم الله محدث مخلوق ، وأنه تعالى لم يكن يعلم شيئاً حتى أحدث لنفسه علماً يعلم به ، وكذلك قولهم في القدرة ، وقولهم أيضاً أن الجنة والنار يفنيان ، ويفنى كل من فيهما ، وهذا خلاف القرآن والثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلاف إجماع أهل الإسلام ''.ا هـ

وللإمام ابن القيم كتاب نافع في الرد على هذه النحلة وأشباهها ،، وهو :

'' اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ''.

(٤) . المريسيين هم مرجئة بغداد من أتباع بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي وهو مبتدع ضال ، تفقه أول أمره على قاضي القضاة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ثم أتقن علم الكلام وابتدع بدعاً شنيعة ، فجرد القول بخلق القرآن ، وأخذ بمقالة جهم بن صفوان .

(٥) النحل ١١١

(٦) النِّحَل : بكسر النون وفتح الحاء ، جمع نِحْلَة وهي الطريقة أو المذهب .

ودخولهم فى أبواب لم يأذن الله لهم بدخولها ، ومحاولتهم لعلم شيء استأثر[٧] الله بعلمه ، حتى تفرقوا فرقا ، وتشعبوا شعبا وصاروا أحزابا ، وكانوا فى البداية ومحاولة الوصول إلى ما يتصورونه من العامة مختلفى المقاصد ، متباينى المطالب فطائفة وهى أخف هذه الطوائف ــ المتكلفة علم ما لم يكلفها الله سبحانه بعلمهِ ــ إثما ، وأقلها عقوبة وجرما[٨] وهى التى أرادت الوصول إلى الحق ، والوقوف على الصواب ، لكن سلكت فيه طريقة متوعرة ، وصعدت فى الكشف عنه إلى عقبة كؤود[٩] لا يرجع من سلكها فضلا عن أن يظفر[١٠] فيها بمطلوب صحيح ، ومع هذا أصلوا أصولا ظنوها حقا فدفعوا بها آيات قرآنية ، وأحاديث صحيحة نبوية ، واعتلوا فى ذلك الدفع بشبه واهية وخيالات مختلة وهؤلاء هم طائفتان :

١ ــ (**الطائفة الأولى**) : هى الطائفة التى غلت فى التنزيه فوصلت إلى حد يقشعر عنده الجلد ، ويضطرب له القلب ، من تعطيل الصفات الثابتة بالكتاب والسنة ثبوتا أوضح من شمس النهار ، وأظهر من فلق الصباح ، وظنوا هذا من صنيعهم موافقا للحق ، مطابقا لما يريده الله سبحانه ، فضلوا الطريق المستقيم ، وأضلوا من رام[١١] سلوكها .

٢ ــ (**والطائفة الأخرى**) : هى الطائفة التى غلت فى إثبات القدرة غلواً بلغ إلى حد أنه لا تأثير لغيرها ، ولا اعتبار بما سواها ، وأفضى ذلك إلى الجبر[١٢] المحض ، والقسر[١٣] الخالص فلم يبق لبعث الرسل وإنزال الكتب كثير فائدة ، ولا يعود ذلك على عباده بعائدة ، وجاءوا بتأويلات للآيات البينات ،

---

(٧) الاستئثار : الانفراد بالشئ وعدم الإشراك فيه .
(٨) الجرم = الذنب والإساءة
(٩) يقال عقبة كؤد أو كأداء ، أى شاقة المصعد ، صعبة المرتقى .
(١٠) ظفر بالشئ ، ناله وحصل عليه .
(١١) رام الشئ أراده وطلبه .
(١٢) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى ، فيقولون أن الإنسان لا فعل له ولا قدرة .
(١٣) القسر :الإكراه والقهر .

ومماحلات[14] لحجج الله الواضحات فكانوا كالطائفة الأولى فى الضلال والإضلال ، مع أن كلا المقصدين صحيح ، ووجه كل منهما صبيح ، لو لا ما شانه من الغلو القبيح ، وطائفة توسطت ورامت الجمع بين الضب والنون[15]، وظنت أنها وقفت بمكان بين الإفراط والتفريط ، ثم أخذت كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث تجادل وتناضل وتحقق وتدقق فى زعمها ، وتجول على الأخرى وتصول[16] بما ظفرت به مما يوافق ما ذهبت إليه و (**كل حزب بما لديهم فرحون**)[17] وعند الله تلتقى الخصوم ، ومع هذا فهم متفقون فيما بينهم على أن طريق السلف أسلم ، ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم[18]، فكان غاية ما ظفروا به من هذه الأعلمية لطريق الخلف ، أن تمنى محققوهم وأذكياؤهم فى آخر أمرهم دين العجائز وقالوا : هنيئا للعامة .

فتدبر هذه الأعلمية التى حاصلها أن يهني من ظفر بها لأهل الجهل البسيط ويتمنى أنه فى عدادهم ، وممن يدين بدينهم ، ويمشى على طريقهم ، فإن هذا ينادى بأعلى صوت ويدل بأوضح دلالة على أن هذه الأعلمية التى طلبوها ــ الجهل خير منها بكثير ، فما ظنك بعلم يقر صاحبه على نفسه أن الجهل خير منه ، وينتهى عند البلوغ إلى غايته ، والوصول إلى نهايته ، أن يكون جاهلا به عاطلا عنه ، ففى هذا عبرة للمعتبرين ، وآية بينة للناظرين ، فهلا عملوا على جهل هذه المعارف التى دخلوا فيها بادىء بدء ، وسلموا من تبعاتها[19] وأراحوا أنفسهم من تعبها ، وقالوا كما قال القائل :

أرى الأمرَ يُفضِى إلى آخرٍ   يُصيِّرُ آخره أوْلاَ

---

(١٤) المماحلات : التكلفات ، يقال مَحَلَ لفلان : أى تكلف له .
(١٥) يقال '' رام الجمع بين الضب والنون '' ذلك لما بين الضب والنون ــ وهو الحوت ــ من العداوة .
(١٦) جال يجول ، وصال يصول ، بمعنى كر ووثب .
(١٧) الروم ٣٢
(١٨) ليتهم اتبعوا مذهب السلف ، لكان أسلم لهم ، ولأراحوا واستراحوا ، ولكان وسعهم ما وسع غيرهم .
(١٩) التبعات جمع تبعة ، وهى ما يلحق الإنسان من ضرر .

وربحوا الخلوص من هذا التمنى ، والسلامة من هذه التهنئة للعامة فإن العاقل لا يتمنى رتبة مثل رتبته أو دونها ، ولا يهنى لمن هو دونه أو مثله ، ولا يكون ذلك إلا لمن رتبته أرفع من رتبته ، ومكانه أعلى من مكانه

فيا لله العجب من علم يكون الجهل البسيط أعلى رتبة منه ، وأفضل مقدارا منه بالنسبة إليه ، وهل سمع السامعون مثل هذه الغريبة ؟ أو نقل الناقلون ما يماثلها أو يشابهها ؟ وإذا كان حال هذه الطائفة التى قد عرفناك أخف هذه الطوائف تكلفا وأقلها تبعة ، فما ظنك بما عداها من الطوائف التى قد ظهر فساد مقاصدها ؟ وتبين بطلان مواردها ومصادرها ؟ كالطوائف التى أرادت بالمظاهر التى تظاهرت به ، إكبار الإسلام وأهله والسعى فى التشكيك فيه ، بإيراد الشبه ، وتقرير الأمور المفضية إلى القدح فى الدين ، وتنفير أهله عنه ، وعند هذا تعلم أن :

خَيْرُ الأُمورِ السَّالِفَاتُ عَلَى الهُدَى   وَشَرُّ الأُمورِ المُحْدَثَاتُ البَدَائِعُ

وأن الحق الذى لا شك فيه ولا شبهة ، هو ما كان عليه « **خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** » وقد كانوا (رحمهم الله) وأرشدنا إلى الاقتداء بهم ، والاهتداء بهديهم ، يمرون أدلة الصفات على ظاهرها ولا يتكلفون علم ما لا يعلمون ولا يتأولون وهذا المعلوم من أقوالهم وأفعالهم ، والمتقرر من مذاهبهم لا يشك فيه شاك ، ولا ينكره منكر ، ولا يجادل فيه مجادل ، وإن نزع بينهم نازع أو نجم فى عصرهم ناجم[٢٠] أوضحوا للناس أمره ، وبينوا لهم أنه على ضلالة وصرحوا بذلك فى المجامع والمحافل ، وحذروا الناس من بدعته ، كما كان منهم لما ظهر معبد الجهنى[٢١] وأصحابه ، وقالوا أن الأمر أنف[٢٢] وبينوا ضلالته وبطلان مقالته للناس ، فحذروه إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

---

(٢٠) النازع : الغريب ، والناجم : ما ظهر ووضح .

(٢١) هو معبد بن خالد الجهني البصري ، أول من تكلم في القدر ، واختلف في موته ، فقيل صلبه عبد الملك بن مروان ، وقيل خرج مع ابن الأشعث فأخذه الحجاج فعذبه ثم قتله ، وقيل مات سنة ٨٠ هـ .

(٢٢) إنما الأمر أنف ، أى يُستأنف استئنافا من غير أن يسبق به قضاء وتقدير وإنما هو على اختيارك ودخولك فيه .

وهكذا كان مَنْ بَعْدَهم يوضح للناس بطلان أقوال أهل الضلال ، ويحذرهم منها كما فعله التابعون (رحمهم الله) بالجعد بن درهم[٢٣] ومن قال بقوله وانتحل نحلته الباطلة ثم ما زالوا هكذا لا يستطيع المبتدع فى الصفات أن يتظاهر ببدعته بل يكتمونها كما تتكتم الزنادقة بكفرهم ، وهكذا سائر المبتدعين فى الدين على اختلاف البدع ، وتفاوت المقالات الباطلة ، ولكنا نقتصر ههنا على الكلام فى هذه المسألة التى ورد السؤال عنها وهى مسألة الصفات وما كان من المتكلمين فيها بغير الحق المتكلف علم ما لم يأذن الله بأن يعلموه ، وبيان أن إمرار أدلة الصفات على ظاهرها هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وأن كل من أراد من نزاع[٢٤] المتكلفين ، وشذاذ المحدثين والمتأولين ، أن يظهر ما يخالف المرور على ذلك الظاهر ، قاموا عليه وحذروا الناس منه ، وبينوا لهم أنه على خلاف ما عليه أهل الإسلام ، وسائر المبتدعين فى الصفات ، القائلون بأقوال تخالف ما عليه السواد الأعظم من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، فى خبايا وزوايا لا يتصل بهم إلا مغرور ، ولا ينخدع بزخارف أقوالهم إلا مخدوع ، وهم مع ذلك على تخوف من أهل الإسلام ، وترقب لنزول مكروه بهم من حماة الدين ، من العلماء الهادين ، والرؤساء والسلاطين ، حتى نجم ناجم المحنة ، وبرق بارق الشر من جهة العباسية ومن لهم فى الأمر والنهى والإصدار والإيراد أعظم صولة ، وذلك فى الدولة بسبب قاضيها أحمد بن أبى داود[٢٥] فعند ذلك أطلع المنكسون فى تلك الزوايا رؤوسهم . وانطلق ما كان قد خرس من ألسنتهم ،

---

(٢٣) هو الجعد بن درهم ، مؤدب مروان بن محمد آخر ولاة بني أمية ، وكان ينسب إليه فيقال '' مروان بن الجعد '' ، ويقال أنه أول من تكلم في خلق القرآن ، وأخذه خالد بن عبد الله القسري فذبحه يوم عيد الأضحى .

(٢٤) نزاع جمع نازع وهو الغريب .

(٢٥) هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادى ، قاضي معتزلي ، ولد بالبصرة حوالي عام ١٦٠ هـ ، واستطاع أن يصل إلى مكانة كبيرة في عهد « المأمون » ، ولم يلبث أن أصبح من أخلص أصدقاء هذا الخليفه ، واستمر على مكانته لدى المعتصم بعد المأمون ، وهو الذى تولى كبر محنة الإمام « أحمد بن حنبل » .
وأصابه الفالج في أيام المتوكل ، ومات مخزياً عام ٢٤٠ هـ بعد موت ابنه محمد ، وكانت له موهبة في قول الشعر .

وأعلنوا بمذاهبهم الزائفة وبدعهم المضلة . ودعوا الناس إليها وجادلوا عنها . وناضلوا المخالفين لها حتى اختلط المعروف بالمنكر واشتبه على العامة الحق بالباطل . والسنة بالبدعة[٢٦] .

ولما كان الله سبحانه قد تكفل بإظهار دينه على الدين كله وبحفظه عن التحريف والتغيير والتبديل أوجد من علماء الكتاب والسنة فى كل عصر من العصور من يبين للناس دينهم ، وينكر على أهل البدع بدعهم ، فكان لهم ولله الحمد المقامات المحمودة ، والمواقف المشهودة ، فى نصر الدين ، وهتك المبتدعين .

وبهذا الكلام القليل الذى ذكرنا تعرف أن مذهب السلف من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين وتابعيهم ، هو إيراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف[٢٧] لشيء منها ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل يفضى إليه كثير من التأويل وكانوا إذا سأل سائل عن شئ من الصفات تلوا عليه الدليل ، وأمسكوا عن القال والقيل ، وقالوا : قال الله هكذا ولا ندرى بما سوى ذلك ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه ولا أذن الله لنا بمجاوزته ، فإن أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بالوقوع فى بدعة من البدع التى هى غير ما هم عليه وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحفظه التابعون عن الصحابة وحفظه من بعد التابعين عن التابعين .

وكان فى هذه القرون الفاضلة الكلمة فى الصفات متحدة والطريقة لهم جميعا متفقة ، وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به وكلفهم القيام بفرائضه من الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام ، والحج ، والجهاد ، وإنفاق الأموال فى أنواع البر ، وطلب العلم النافع ، وإرشاد الناس إلى الخيـــر على اختلاف أنواعه ، والمحافظه

---

(٢٦) وكان من جراء ذلك محنة '' خلق القرآن '' التي وقع فيها كثير من علماء الأمة وفي كتاب '' الحيدة '' رد على هذه الدعوى .

(٢٧) التعسف الأخذ على غير الطريق .

على موجبات الفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، والقيام بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والأخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة وبما تبلغ إليه القدرة ، ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعلمه ولا تعبدهم بالوقوف على حقيقته ، فكان الدين إذ ذاك صافيا عن كدر البدع خالصا عن شوب[٢٨] قذر التمذهب ، فعلى هذا النمط[٢٩] كان الصحابة رضى الله عنهم والتابعون وتابعوهم بهدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اهتدوا ،وبأفعاله وأقواله اقتدوا . فمن قال إنهم تلبسوا بشىء من هذه المذاهب الناشئة فى الصفات ، أو فى غيرها فقد أعظم عليهم الفرية[٣٠] وليس بمقبول فى ذلك فإن أقوال الأئمة المطلعين على أحوالهم العارفين بها الآخذين لها عن الثقات الأثبات[٣١] يرد عليه ويدفع فى وجهه ــ يعلم ذلك كل من له علم ، ويعرفه كل عارف ، فاشدد بذلك على هذا ، واعلم أنه مذهب خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ودع عنك ما حدث من تلك التمذهبات فى الصفات ، وأرح نفسك من تلك العبارات التى جاء بها المتكلمون ، واصطلحوا عليها وجعلوها أصلا يرد كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن وافقاها فقد وافقا الأصول المتقررة فى زعمهم ، وإن خالفاها فقد خالفا الأصول المتقررة فى زعمهم ، ويجعلون الموافق لها من قسم المقبول والمحكم ، والمخالف لها من قسم المردود والمتشابه ، ولو جئت بألف آية واضحة الدلالة ظاهرة المعنى أو ألف حديث مما ثبت فى الصحيح لم يبالوا به ولا رفعوا إليه رؤسهم ولا عدوه شيئا ومن كان منكرا لهذا فعليه بكتب هذه الطوائف المصنفة في علم الكلام فإنه سيقف على الحقيقة ويسلم هذه الجملة ولا يتردد فيها .

ومن العجب العجيب ، والنبأ الغريب ، أن تلك العبارات الصادرة عن جماعة من أهل الكلام ، التى جعلها من بعدهم أصولا لامستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل ،

---

(٢٨) الشوب : الخلط
(٢٩) النمط : الطريقة
(٣٠) الفرية : الكذب ، وافتراه :اختلقه
(٣١) أثبات : مفردها (ثَبْتٌ) وهو الثابت القلب .

والفرية على الفطرة ، وكل فرد من أفرادها قد تنازعت فيه عقولهم وتخالفت عند إدراكاتهم ، فهذا يقول : حكم العقل فى هذا الكلام كذا وهذا يقول حكم العقل فى هذا كذا ، ثم يأتى بعدهم من يجعل ذلك الذى يعقله مَنْ تقلده ويقتدى به أصلا يرجع إليه ومعيارا لكلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يقبل منهما ما وافقه ويرد ما خالفه . فيالله وياللمسلمين ويالعلماء الدين من هذه الفواقر[٣٢]الموحشة التى لم يصب الإسلام وأهله بمثلها .

وأغرب من هذا وأعجب وأشنع وأفظع أنهم بعد أن جعلوا هذه التعقلات التى تعقلوها على اختلافهم فيها وتناقضهم فى معقولاتها أصولاً ترد إليها أدلة الكتاب والسنة جعلوها معياراً لصفات الرب تعالى فما تعقله هذا من صفات الله قال به جزما وما تعقله خصمه منها قطع به فأثبتوا لله تعالى الشىء ونقيضه استدلالا بما حكمت به عقولهم الفاسدة وتناقضت فى شأنه ولم يلتفتوا إلى ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بل إن وجدوا ذلك موافقاً لما تعقلوه جعلوه مؤيداً له ومقويا ، وقالوا قد ورد دليل السمع مطابقا لدليل العقل ، وإن وجدوه مخالفا لما تعقلوه جعلوه واردا على خلاف الأصل ، ومتشابها وغير معقول المعنى ولا ظاهر الدلالة ، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم فافترى على عقله بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه ، وجعل ذلك أصلا يرد إليه أدلة الكتاب والسنة ، وجعل المتشابه عند أولئك محكما عنده ، والمخالف لدليل العقل عندهم موافقا له عنده ، فكان حاصل كلام هؤلاء أنهم يعلمون من صفات الله مالا يعلمه ، وكفاك هذا وليس بعده شىء . وعنده يتغير القلم حياء من الله سبحانه وتعالى . وربما استبعد هذا مستبعد ، واستنكره مستنكر ، وقال : إن فى كلامى هذا مبالغة وتهويلا ، وتشنيعا وتطويلا ، وإن الأمر أيسر من أن يكون حاصله هذا الحاصل وثمرته مثل هذه الثمرة التى أشرت اليها

فأقول : خذ جملة البلوى ودع تفصيلها واسمع ما يصك سمعك . ولولا هذا الإلحاح

---

(٣٢) فواقر : مفردها فاقرة ، وهي الداهية الشديدة

منك ما سمعته ولا جرى القلم بمثله : هذا أبو على[٣٣] وهو رأس من رءوسهم ، وركن من أركانهم ، واسطوانة من اسطواناتهم ، قد حكى عنه الكبار وآخر من حكى عنه ذلك صاحب شرح القلائد [والله لا يعلم من نفسه إلا ما يعلم هو] فخذ هذا التصريح ، حيث لم تكتف بذلك التلويح ، وانظر هذه الجرأة على الله سبحانه وتعالى التى ليس بعدها جرأة . فيالأم أبى على الويل ، أنهيق مثل هذا النهيق ، ويدخل نفسه فى هذا المضيق ؟ وهل سمع السامعون بيمين أفجر من هذه اليمين الملعونة ، أو نقل الناقلون كلمة تقارب معنى هذه الكلمة المفتونة ، أو بلغ مفتخر إلى ما بلغ هذا المختال الفخور ، أو وصل من يفخر فى إيمانه إلى ما يقارب هذا الفجور ؟ وكل عاقل يعلم أن أحدنا لو حلف أن ابنه أو أباه لايعلم من نفسه إلا ما يعلمه هو لكان كاذبا فى يمينه فاجرا فيها ، لأن كل فرد من الناس ينطوى على صفات وغرائز لا يحب أن يطلع عليها غيره ، ويكره أن يقف على شيء منها سواه ، ومن ذا الذى يدرى بما يجول فى خاطر غيره ويستكن فى ضميره ، ومن ادعى علم ذلك وأنه يعلم من غيره من بنى آدم ما يعلمه ذلك الغير من نفسه ولا يعلم ذلك من نفسه إلا ما يعلمه هذا المدعى ، فهو إما مصاب العقل يهذى بما لايدرى ، ويتكلم بما لا يفهم ، أو كاذب شديد الكذب عظيم الافتراء فإن هذا أمر لا يعلمه غير الله سبحانه وتعالى فهو الذى يحول بين المرء وقلبه ، وما توسوس به نفسه ، وما يسر عباده وما يعلنون وما يظهرون وما يكتمون كما أخبرنا بذلك فى كتابه العزيز فى غير موضع فقد خاب وخسر من أثبت لنفسه من العلم ما لا يعلمه إلا الله من عباده ، فما ظنك من جاوز هذا وتعداه ، وأقسم بالله سبحانه أن الله لا يعلم من نفسه إلا ما يعلمه هو ، ولايصح لنا أن نحمله على اختلال العقل ، فلو كان مجنونا لم يكن رأسا يقتدى بقوله جماعات من أهل عصره ومن جاء بعده وينقلون كلامه فى الدفاتر ، ويحكون عنه فى مقامات الاختلاف ، ولعل أتباع هذا ومن يقتدى بمذهبه لو قال لهم قائل وأورد عليهم مورد قول الله عز

---

(٣٣) لعله أبو علي الجبائي ، وهو محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان ، الجبائي نسبة إلى (جُبَّى) بضم المعجمة وفتح الموحدة وتشديدها ، وهي بلد من أعمال خوزستان .

وهو شيخ من شيوخ المعتزلة ، وابنه أبو هاشم من شيوخها أيضاً ، ولقد اتفق لأبى علي من التقدم والرياسة ، ما لم يتفق لغيره من أهل الاعتزال قبله ، إلا لأبى الهذيل العلاف وكانت وفاته ٣٠٣ هـ

وجل ﴿ **وَلاَ يُحِيْطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾[٣٤] وقوله﴿ **وَلاَ يُحِيْطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلمِهِ إلَّا بِمَا شَاءَ** ﴾[٣٥] وقال لهم : هذا يرد ما قال صاحبكم ويدل على أن يمينه هذه فاجرة مفتراة لقالوا : هذا ونحوه مما يدل دلالته ويفيد مفاده من التشابه الوارد على خلاف دليل العقل المدفوع بالأصول المقررة

وبالجملة فإطالة ذيول الكلام فى مثل هذا المقام إضاعة للأوقات ، واشتغال بحكاية الخرافات ، المبكيات لا المضحكات وليس مقصودنا ههنا إلا إرشاد السائل إلى أن المذهب الحق فى الصفات ، هو إمرارها على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تكلف ولا تعسف ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل وأن ذلك هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم .

فإن قلت : وماذا تريد بالتعطيل فى مثل هذه العبارات التى تكررها فإن أهل المذاهب الإسلامية يتنزهون عن ذلك ويتحاشون عنه ولا نصدق معناه ولا يوجد مدلوله إلا في طائفة من طوائف الكفار وهم المنكرون للصانع . قلت : يا هذا إن كنت ممن له إلمام بعلم الكلام ، الذى اصطلح عليه طوائف من أهل الإسلام ، فإنك لا محالة قد رأيت ما يقوله كثير منهم ويذكرونه فى مؤلفاتهم ويحكونه عن أكابرهم : إن الله سبحانه وتعالى تنزه وتقدس لا هو جسم ولا هو جوهر ولا عرض ولا داخل العالم ولا خارجه . فأنشدك الله : أى عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة فى النفي ؟ وأى مبالغة فى الدلالة على هذا النفى تقوم مقام هذه المبالغة ؟ فكأن هؤلاء فى فرارهم من شبهة التشبيه إلى هذا التعطيل كما قال القائل :

فَكُنت كالسَّاعِى إلى مِثْعَب مَوَائلا من سُبُلِ الراعد[٣٦]

(٣٤) طه ١١٠

(٣٥) البقرة ٢٥٥

(٣٦) المثعب : مسيل الحوض أو السطح الذى يتفجر منه الماء .
الموائل : طلب النجاة
وهذا المثل يضرب لمن يهرب من شىء فيقع في أشر منه .

أو كالمستجير من الرمضاء بالنار ، والهارب من لسعة الزنبور إلى لدغة الحية ، ومن قرصة النحلة إلى قضمة الأسد .

وقد يغنى هؤلاء وأمثالهم من المتكلمين المتلكفين كلمتان من كتاب الله تعالى وصف بهما نفسه وأنزلهما على رسوله وهما﴿ **وَلاَ يُحيْطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾(٣٧)و ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىء** ﴾(٣٨)فإن هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب ، وتضمنتا بما يعين أولى الألباب ، السالكين فى تلك الشعاب ، فالكلمة منها دلت دلالة بينة على أن كل ما تكلم به البشر فى ذات الله وصفاته على وجه التدقيق ، ودعاوى التحقيق ، فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل مخلوط بخلوط هى منافية للعلم ومباينة له ، فإن الله سبحانه قد أخبرنا أنهم لا يحيطون به علما فمن زعم أن ذاته كذا أو صفته كذا فلا شك أن صحة ذلك متوقفة على الإحاطة وقد نفيت عن كل فرد من الأفراد علما .

فكل قول من أقوال المتكلمين صادر على جهل إما من كل وجه أو من بعض الوجوه ، وما صدر عن جهل فهو مضاف إلى جهل ، ولاسيما إذا كان فى ذات الله وصفاته فإن ذلك من المخاطرة فى الدين ما لم يكن فى غيره من المسائل ، وهذا يعلمه كل ذى علم ويعرفه كل عارف ، ولم يحط بفائدة هذه الآية ويقف عندها ويقتطف من ثمراتها إلا الممرون الصفات على ظاهرها المريحون أنفسهم من التكلفات والتعسفات والتأويلات والتحريفات ، وهم السلف الصالح كما عرفت ، فهم الذين اعترفوا بالإحاطة ، وأوقفوا أنفسهم حيث أوقفها الله وقالوا : الله أعلم بكيفية ذاته ، وما هية صفاته ، بل العلم كله له ، وقالوا كلما قال من قال ، فمن اشتغل بطلب هذا المحال فلم يظفر بغير القيل والقال .

العلـمُ للـرحمنِ جَـلَّ جَلاَلُـــه وَسِواه فى جَهَلاتـه يَتَغَمْغَـــمُ(٣٩)
مـا للتـراب وللعلـومِ وإنَّمـا يسعـى لِيَعْلَـم أَنَّـهُ لا يَعْلَـمُ

---

(٣٧) طه ١١٠
(٣٨) الشورى ١١
(٣٩) يتغمغم : يتكلم بكلام لا يفهم ولا يُبَيِّن .

بل اعترف كثير من هؤلاء المتكلفين بأنه لم يستفد من تكلفه وعدم قنوعه بما قنع به السلف الصالح ، إلا مجرد الحيرة التى وجد عليها غيره من المتكلفين فقال :

[لَقَدْ طُفْتُ في تلك المعاهدِ كلها] وسيَّرت طرفي بين تلك المعالمِ[٤٠]
فلم أَرَ إلا وَاضِعَاً كفَّ حائرٍ على ذَقَنٍ ، أو قارعاً سِنَّ نادمِ[٤١]

وها أنا أخبرك عن نفسى ، وأوضح لك ما وقعت فيه فى أمسى ، فإنى فى أيام الطلب وعنفوان[٤٢] الشباب شغلت بهذا العلم الذى سموه تارة علم الكلام ، وتارة علم التوحيد ، وتارة علم أصول الدين ، وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم ورمت الرجوع بفائدة ، والعود بعائدة ، فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة ، وكان ذلك من الأسباب التى حببت إلى مذهب السلف ، على أنى كنت قبل ذلك عليه ولكن أردت أن أزداد منه بصيرة وبه شغفا ، وقلت عند ذلك فى تلك المذاهب :

وغـايةُ ما حصـــلتهُ من مبـاحثي ومن نظرى من بعد طول التدبرِ
هو الوقف مـا بين الطريقين حَيْرَةً فما عَلِمَ من لم يلق غير التحيرِ
على أننى قد خضت منه غمارَه[٤٣] وما قنعت نفسى بغير التبحــرِ

وأما الكلمة وهى (ليس كمثله شيء)[٤٤] فبها يستفاد نفى المماثلة فى كل شيء ،

فيدفع بهذه الآية فى وجه المجسمة وتعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع البصير وعند ذكر السمع والبصر واليد والاستواء ونحو ذلك مما اشتمل عليه الكتاب

---

(٤٠) سيرت طرفي : أجلت أو حركت نظري .
(٤١) قرع سن الندم : يضرب لمن يندم على شيء فاته .
وجاء فى هامش '' درء تعارض العقل والنقل '' ت د . محمد رشاد سالم ، رد على البيتين لمحمد بن إسماعيل الأمير ..هما :.

لعلك أهملت الطواف . بمعهـد الرسول ومن لاقاه من كل عالم
فما حار من يهدى بهدي محمد ولست تراه قارعـــاً سن نــادم

(٤٢) عنفوان الشباب : بدايته وقوته
(٤٣) غمـاره : أي ما صعب منه
(٤٤) ،(٤٥) الشـورى ١١

والسنة فتقرر بذلك الإثبات لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات ، فيدفع به جانبى الإفراط والتفريط ، وهما المبالغة فى الإثبات المفضية الى التجسيم والمبالغة فى النفى المفضية الى التعطيل ، فيخرج من بين الجانبين ، وغلو الطرفين ، حَقيَّة مذهب السلف الصالح وهو قولهم بإثبات ما أثبته لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه إلا هو فإنه القائل ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[٤٥]

ومن جملة الصفات التى أمرها السلف على ظاهرها ، وأجروها على ما جاء به القرآن والسنة من دون تكلف ولا تأويل ـــ صفة الاستواء التى ذكرها السائل ، يقولون نحن نثبت ما أثبته الله لنفسه من استوائه على عرشه على هيئة لا يعلمها إلا هو وكيفية لا يدرى بها سواه ، ولا نكلف أنفسنا غير هذا فليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا تحيط عباده به علما . وهكذا يقولون في مسألة الجهة التى ذكرها السائل وأشار إلى بعض ما فيه دليل عليها ، والأدلة فى ذلك طويلة كثيرة فى الكتاب والسنة ، وقد جمع أهل العلم منها ـــ لا سيما أهل الحديث ـــ مباحث طولوها بذكر آيات قرآنية ، وأحاديث صحيحة ، وقد وقفت من ذلك على مؤلف بسيط فى مجلد جمعه مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى[٤٦] رحمه الله استوفى فيه كل ما فيه دلالة على الجهة من كتاب أو سنة أو قول صاحب .

والمسألة أوضح من أن تلتبس على عارف ، وأبين من أن يحتاج فيها إلى التطويل ، ولكنها لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل الكائنة بين بعض الطوائف الإسلامية كثر الكلام فيها وفى مسألة الاستواء وطال سيما بين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب فلهم فى ذلك الفتن الكبرى ، والملاحم[٤٧] العظمى ، ومازالوا هكذا فى عصر بعد عصر والحق هو ما عرفناك من مذهب السلف الصالح ، فالاستواء على العرش والكون

---

(٤٦) هو الحافظ الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي ، من أصل تركماني ، ولد بدمشق ٦٧٣ هـ ، ونشأ بها وطلب العلم ، وتردد على الشيوخ ورحل إليهم ، وحاز كثيراً من العلوم وبرز في الحديث وعلومه ، والتاريخ وفنونه ، وتوفي بدمشق سنة ٧٤٨ هـ والكتاب المقصود '' العلو للعلي الغفار '' وقد طبع مراراً ، واختصره الألباني .

(٤٧) الملاحم : جمع ملحمة وهي الوقعة العظيمة

فى تلك الجهة قد صرح به القرآن الكريم فى مواطن يكثر حصرها ويطول نشرها كذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى غير حديث ، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد الناس فى نفسه ويحسه فى فطرته وتجذبه إليه طبيعته كما تراه فى كل من استغاث بالله سبحانه وتعالى والتجأ إليه ووجه أدعيته إلى جنابه الرفيع ، وعزه المنيع ، فإنه يشير عند ذلك بكفه ، أو يرمى إلى السماء بطرفه ، ويستوى فى ذلك عند عروض أسباب الدعاء وحدوث بواعث الاستغاثة ، ووجود مقتضيات الإزعاج ، وظهور دواعى الالتجاء — عالم الناس وجاهلهم . والماشى على طريقة السلف . والمقتدى بأهل التأويل القائلين بأن الاستواء هو الاستيلاء[٤٨] كما قال جمهور المتأولين والأقيال[٤٩] كما قاله أحمد بن يحيى ثعلب[٥٠] والزجاج[٥١] والفراء[٥٢] وغيرهم، أو كناية عن الملك والسلطان كما قاله آخرون .

فالسلامة والنجاة فى إمرار ذلك على الظاهر والإذعان بأن الاستواء والكون على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف ولا تكلف ولا قيل ولا قال ، ولا قصور في شيء من المقال ، فمن جاوز هذا المقدار بإفراط أو تفريط فهو غير مقتد بالسلف ، ولا واقف فى طريق النجاة ، ولا معتصم عن الخطأ ، ولا سالك فى طريق السلامة والاستقامة ، وكما نقول هكذا فى الاستواء والكون فى تلك الجهة فكذا نقول فى مثل قوله سبحانه ﴿ **وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَما كُنْتُم وَاللَّهُ بِما تَعْمَلونَ بَصير** ﴾[٥٣]— وقوله —

(٤٨) هذا قول متأولي المعتزلة ، وقد استندوا إلى بيت مزعوم ، قالوا أنه ينتسب إلى الأخطل النصراني ،،
قد استوى بشر على العراق — من غير سيف ودم مهراق

(٤٩) الأقيـال : جمع قَيْل بفتح القاف وسكون المثناة التحتية ، وهو الرئيس أو الملك .

(٥٠) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني ، المعروف بثعلب ، إمام الكوفيين في النحو واللغة والحديث ، ولد سنة ٢٠٠ هـ ومات ٢٩١ هـ ، في خلافة '' المكتفي ''

(٥١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج ، سمي بذلك ، لأنه كان في شبيبته يخرط الزجاج ، وهو أشهر تلامذة المبرد ، كان أماماً في النحو والعربية ، مات سنة ٣١١ هـ وقيل ٣١٦ هـ

(٥٢) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الباهلي الفراء ، فارسي الأصل ، وكان أشهر تلامذة الكسائي ، وعليه برع فى النحو ومن أشهر مؤلفاته '' معني القرآن '' مات سنة ٢٠٧ هـ

(٥٣) الحديد ٤

﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُم ﴾(٥٤) — وفى نحو — ﴿ إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرين ﴾(٥٥) — ﴿ إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالذِينَ هُمْ مُحْسِنُون ﴾(٥٦) إلى ما يشابه ذلك ويماثله ويقاربه ويضارعه ، فنقول فى مثل هذه الآيات : هكذا جاء القرآن إن الله سبحانه مع هؤلاء ولا نتكلف تأويل ذلك كما يتكلف غيرنا بأن المراد بهذا الكون وهذه المعية هو كون العلم ومعيته ، فإن هذا شعبة من شعب التأويل تخالف مذاهب السلف وتباين ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم(*)، وإذا انتهيت إلى السلامة فى مداك فلا تجاوزه .

وهذا الحق ليس به خفاء ... فدعنى من بنيات الطريق(٥٧)

وقد هلك المتنطعون ولا يهلك على الله إلا هالك وعلى نفسها براقش(٥٨) تجنى وفى هذه الجملة وإن كانت قليلة ما يغنى من شح بدينه وتحرص عليه عن تطويل المقال وتكثير ذيوله ، وتوسيع دائرة فروعه وأصوله ، والهداية من الله ، والله أعلم .

(انتهت الرسالة والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله الأمين)

---

(٥٤) المجادلة ٧

(٥٥) البقرة ١٥٣ ، الأنفال ٤٦

(٥٦) النحل ١٢٨

(*) هذا الذى قاله الشوكانى رحمه الله فيه نظر بيّن بل الصواب إثبات ما نفاه ونفى ما أثبته إذ هو اعتقاد السلف . وكتاب « العلو للعلى الغفار » للحافظ الذهبى الذى نوه به الشوكانى فى كتابه هذا (راجع هامش ٤٦) طافح بإثبات ما نفاه عن سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان من علماء الأمة القدماء بل فيه نص أبى عمر بن عبد البر بالإجماع على ذلك حيث يقول « أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حُمِلَ عنهم التأويل . قالوا فى تأويل قوله تعالى ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ : هو على العرش ، وعلمه فى كل مكان . وما خالفهم فى ذلك أحد يحتج بقوله » ا هـ . من مختصر العلو للألبانى ص ٢٦٨ وفيه إنكار الألبانى على الإمام الشوكانى مخالفته فى هذا الموضع لسلف الأمة والذى ختمه بقوله « فلا تغتر إذن بما زعمه الشوكانى من المخالفة فإن لكل عالم زلّة ولكل جواد كبوة . » أ هـ .

(٥٧) بنيات الطريق : هي الطرق الصغيرة المتشعبة من جادة الطريق .

(٥٨) براقش كلبة لقبيلة جاهلية ، سمعت وقع حوافر دواب ، فنبحت ، فاستدل الغزاة على مكان القبيلة فاستباحوها ، وهو مثل يضرب لمن يعمل عملاً يعود عليه بالضرر .

ثبت المراجـــع

١ ـــ القـرآن الكـريم

٢ ـــ الفصل فى الملل والأهواء والنحل — لا بن حزم الأندلسي الظاهري

٣ ـــ الملل والنحــل — لأبى الفتح الشهرستاني

٤ ـــ درء تعارض العقل والنقل — لشيخ الإسلام ابن تيمية

٥ ـــ الفـرق بين الفرق — لعبد القاهر البغدادي

٦ ـــ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية — لابن قيم الجـوزية

٧ ـــ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار — للشـــوكاني

٨ ـــ الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة — للشـــوكاني

٩ ـــ أدب الطلب ومنتهى الأرب — للشـــوكاني

١٠ـــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — محمد فؤاد عبد الباقى

١١ـــ حياة الحيوان الكـبرى — للدمـيرى

١٢ـــ لسان العـرب — لابن منظــور

١٣ـــ القامـوس المحـيط — للفـيروز آبادى

١٤ـــ المصبـاح المنـير — للفـــيومي

١٥ـــ دائرة المعـارف الإســلامية — مجمـــوعة

١٦ـــ مناقب الإمام أحمـد — لأبى الفـرج بن الجـوزى

١٧ـــ تاريخ الأدب العـــربى — كارل بروكلمان

١٨ـــ ديوان النابغـة

١٩ـــ مجالـس ثعلب — أحمد بن يحيى ثعلب

٢٠ـــ فتح البارى بشرح صحيح البخارى — ابن حجر العســقلاني

٢١ـــ صحيح مســـلم

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٧١١ / ١٩٨٩

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN